

الشيخ محمد بن عبد الوهاب

عبقري العصر وأستاذ الجيل

للاستاذ أحمد فهمي مطر

تمهيد:

قبل أن نتكلم عن حياة الإمام الشيخ الجليل محمد بن عبد الوهاب عبقري العصر وأستاذ الجيل، والذي كان له الأثر الكبير في صفاء العقيدة ونقاؤها من الشرك بعد أن ضل الناس وزاغوا، وحادوا عن الطريق المستقيم، وخالفوا الكتاب والسنة، واتبعوا السبل المتفرقة التي نهى الله عنها، ولم يستجيبوا لأمر الله سبحانه وتعالى حين قال في كتابه الكريم ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ (١). ولم ينتهوا عند تحذير الله لهم حين قال سبحانه ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ (٢) وقوله سبحانه ﴿إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ﴾ (٣) وقد حذر النبي ﷺ أمته من التفرق في الدين، والاختلاف فيه، والبعد عن غواية الشيطان الذي يجرهم إلى الضلالة بأساليبه الملتوية، ووسوسته الخبيثة، فقد

(١) سورة الأنعام، الآية [١٥٣].

(٢) سورة آل عمران، من الآية [١٠٥].

(٣) سورة الأنعام، من الآية [١٥٩].

أخبرنا الصادق المصدوق ﷺ أن أمته ستفترق على ثلاث وسبعين فرقة كلها في النار إلا واحدة وقد سئل عنها الرسول الكريم فقال ما أنا عليه اليوم وأصحابي^(٤). وقد ورد في ذلك أحاديث كثيرة فعن معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه قال «قال رسول الله ﷺ: إن أهل الكتاب افترقوا في دينهم على اثنتين وسبعين ملة وإن هذه الأمة ستفترق على ثلاث وسبعين ملة - يعني أهل الأهواء - كلها في النار إلا واحدة وهي الجماعة»^(٥) فلا نجاة لأحد إلا باتباع القرآن الكريم وسنة الرسول الأمين وأصحابه البررة الطاهرين.

عودة الجاهلية الأولى:

في أوائل القرن الثاني عشر الهجري كانت الجزيرة العربية تغط في جهل عميق وتسبح في بحر من الظلم والفسق والتغيير والتبديل فلا ترى أثراً لدعوة ولا لإصلاح مما أفضى بها إلى الشرك كشرك الجاهلية الأولى فقد كثر الاعتقاد في أشياء كثيرة كالأشجار والأحجار والقبور والأضرحة، والتبرك بها، والنذر لها، والذبح عندها، وطلب الحاجات منها، والتوسل إليها، وتمسح المصابين والمرضى وذوي العاهات بها، ابتغاء الشفاء، تاركين الله جانباً، ناسين كتابه الكريم وسنة رسوله الأمين، وإذا سألتهم عن ذلك أجابوا بالإجابة التي أجاب بها المشركون الأوائل ﴿مانعبدكم إلا ليقرّبونا إلى الله زلفى﴾^(٦) ذلك هو المدخل الذي يدخل منه الشيطان على ابن آدم ليضلّه عن سبيل الله وقد صار ذلك بتعاقب الأيام ومر السنين والأسباب في ذلك كثيرة. فقد كانت الأعراب تنزل البلدان وقت الثمار وصار منهم رجال ونساء يطيبون ويداوون فإذا كان في أحد من أهل البلدة مرض أو في أحد أعضائه أتى إلى مطببه فوصف له الدواء بأن يقول له: اذبح في الموضع الفلاني كذا وكذا إما خروفاً بهيماً أسود وإما تيساً أصم. ثم يقولون لهم لا تسموا على ذبحه وأعطوا المريض منه كذا وكذا وكلوا منه كذا وكذا وتركوا كذا وكذا. فربما يشفي الله مريضهم فتنة لهم واستدراجاً فتكثر الأقاويل وتنتشر بين الناس فيقعون في حبال الشيطان.

(٤) رواه الترمذي في كتاب الفتن «باب افتراق الأمم» بهذا المعنى.

(٥) رواه أبو داود في كتاب السنة «باب شرح السنة» بهذا المعنى.

(٦) سورة الزمر، من الآية [٣].

وعكفوا على ضلالتهم وأوثانهم ونذورهم وذبائحهم واعتقدوا في هذه الأشياء التي لا تضر ولا تنفع وصدق الله العظيم ﴿نسوا الله فأنساهم أنفسهم أولئِكَ هم الفاسقون﴾^(٧) وجعلوا لله شركاء وأنداداً يدعونهم من دون الله ونسوا أن الله واحد لا شريك له. له الملك وله الحمد وهو على كل شيء قدير. قال الله تعالى: ﴿وقال الله لا تتخذوا إلهين اثنين إنما هو إله واحد فإياي فارهبون﴾^(٨) وقوله تعالى ﴿قل إنما حرم ربي الفواحش ما ظهر منها وما بطن والإثم والبغي بغير الحق وأن تشركوا بالله ما لم ينزل به سلطاناً وأن تقولوا على الله ما لا تعلمون﴾^(٩)

ونسوا أن الضار والنافع هو الله وأنه هو الملجأ عند الشدة والمعين عند الحاجة قال الله تعالى ﴿وإذا سألك عبادي عني فإني قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان فليستجيبوا لي وليؤمنوا بي لعلهم يرشدون﴾^(١٠) وقال تعالى ﴿وقال ربكم ادعوني أستجب لكم إن الذين يستكبرون عن عبادتي سيدخلون جهنم داخرين﴾^(١١) ولقد كان ما يرتكبه الناس من أضرار وآثام يندى لها الجبين خزيًا ويقشعر منها قلب كل مؤمن. ومن ذلك أنهم كانوا يقصدون قبر زيد بن الخطاب يدعونه لتفريج الكرب وكشف الضر وكانوا يذهبون إلى الدرعية زاعمين أن بها قبور بعض الصحابة يعبدونهم ويدعونهم ويتوسلون إليهم ولقد انطبق عليهم قول الله تعالى ﴿أنفكأءالهة دون الله تريدون﴾^(١٢) وكان الجواب كان حاضراً ﴿إننا وجدنا آباءنا على أمة وإننا على آئثارهم مهتدون﴾^(١٣) وكانوا يتوجهون إلى ذلك الغار الموجود بالدرعية أيضاً ويزعمون أن الله خلقه في الجبل لامرأة تسمى بنت الأمير أراد بعض الفسقة أن يظلمها فصاحت ودعت الله فانفلق لها الغار بإذن الله فأجارها من ذلك السوء، فكانوا يرسلون الطعام واللحم وأنواع الهدايا.

(٧) سورة الحشر، من الآية [١٩].

(٨) سورة النحل، الآية [٥١].

(٩) سورة الأعراف، الآية [٣٣].

(١٠) سورة البقرة، الآية [١٨٦].

(١١) سورة غافر، الآية [٦٠].

(١٢) سورة الصافات، الآية [٨٦].

(١٣) سورة الزخرف، من الآية [٢٢].

ولقد كانت هذه الضلالات وغيرها تعم الجزيرة العربية كلها . فالحرم المكي من أظهر البقاع على ظهر الأرض - زاده الله تشريفاً وطهرأ - كانوا يفعلون فيه الأفاعيل وكانت الأعراب تأتي فيه المنكر والفسوق والعصيان ما يبعث في النفس الأسى والكمد والحسرة والألم ولقد توعد الله من يلحد فيه أو يظلم بالعذاب الأليم . قال الله تعالى ﴿ومن يرد فيه بإلحاد بظلم نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾^(١٤) ولكن الله تعالى لا يعجل بالعقاب حتى تكون هناك فرصة للتوبة والندم والرجوع إليه سبحانه وتعالى :

ولقد بلغ من انتهاكهم حرمة الحرم أنه لو لجأ إليه سارق أو غاصب أخذه ، أما إذا لجأ إلى بعض قبورهم مما يعظمون مثل قبر المحجوب الذين كانوا يلتمسون عنده الشفاء والشفاعة تركوه وشأنه ولم يتعرضوا له بسوء أو عقاب .

وقد كانت هناك قبور كثيرة يعظمونها ويستغيثون بأصحابها ويقدمون لها القرابين ومن ذلك ما كان يفعل عند قبر ميمونة بنت الحارث أم المؤمنين .

وما كان يفعل عند قبر عبدالله بن عباس وناهيك بما كان يفعل عند قبر المصطفى ﷺ كالانحناء والسجود كذلك ، وخضوعاً وكتعفير الخدود وقد نهى ﷺ عن ذلك ولعن من يفعله .

ولقد كان الشيطان عوناً ومساعداً لهم ومزيناً هذه الأعمال في أعينهم ، فوضع لهم قبراً في جدة طوله ستون ذراعاً وأوحى لهم بأنه قبر أمهم حواء .

الجاهلية تعم المسلمين :

ولقد عمت هذه الجاهلية التي ضربت أطناها في الجزيرة العربية جميع بلاد المسلمين ولا من داع أو أثر لداع أو منكر على الناس ما هم فيه من البدع والخرافات والضلالات والشرك الذي يرتكبونه جهاراً تحت سمع العلماء وبصرهم وللأسف الشديد كان هناك من العلماء من شجعهم على ذلك ممن لبسوا الصوفية وخزعلاتها .

فنرى في مصر آثاماً يندى لها الجبين وتخزى لها الإنسانية وذلك من الأمور التي تحصل عند قبور الأولياء من أمثال السيدة زينب والإمام الشافعي والحسين بن علي رضي الله عنه وإبراهيم الدسوقي وأبي الحسن الشاذلي والسيد أحمد البدوي . فنرى العامة من الناس يقصدون هذه الأماكن ويتمسحون بها ويتشفعون بأصحابها

(١٤) سورة الحج من الآية [٢٥] .

ويقدمون لها القرايين ويسمون السيدة زينب رئيس الديوان . ولقد صدق فيهم قول الشاعر الذي رأى وسمع :

ورأيت في روما كنيسة بطرس تبلي الشفاه بها حديد الباب
ورأيت في طنطا ضراعة قائل يا أيها البدوي فرج ما بي

أظن أنه لا يوجد شرك أكثر من هذا الشرك وضلال فوق هذا الضلال .
وفي بلاد اليمن يوجد مثل ذلك وأكثر منه . فعندهم قبر الهادي والبرعي وابن علوان وغيرهم من الأحياء والأموات الذين يعظمونهم ويقدمون لهم القرايين والذبائح ويطلبون منهم العون والممدد .

وفي بلاد الشام مايفوق هذا كله ومايتجاوز الحصر من عبادة القبور وأصحاب القبور وطلب الشفاعة والاستغاثة عندهم ومنهم .

وفي العراق كذلك ترى القبور الكثيرة التي يؤمها الناس لطلب الخير والمنفعة كقبر الإمام أبي حنيفة ومعروف الكرخي ومشهد علي بن أبي طالب رضي الله عنه فقد جعلت منه الرافضة وثناً يعبد من دون الله يخشعون في حضرته أكثر مما يخشعون لله ويتوجهون له بالعبادة والدعاء من دون الله ويحلفون بالله كذباً ولا يحلفون به كذباً أبداً لأنهم يزعمون أن عنده مفاتيح الغيب ، ولهذا يقولون إن زيارته أفضل من سبعين حجة وكذلك مشهد الحسين رضي الله عنه ، فنرى عنده من يلطم الخدود ويشق الجيوب ويرفع صوته بالبكاء والعويل ولبس السواد وغير ذلك من هذه المنكرات التي تخرج بهم عن الإسلام .

هذا وفي جميع البلاد العربية والإسلامية نرى هذه الفتن وتلك الضلالات وهذه البدع والخرافات والشرك بالله سبحانه وتعالى :

ولهذا كان لابد من ظهور رجل قوي وداعية شجاع ليأخذ بيد الناس إلى مافيه الخير والفلاح ولا يخشى في ذلك أميراً أو حاكماً ولا يخاف قتلاً أو نفيّاً أو سجنّاً أو تشريداً .

فكان من فضل الله ورحمته بعباده أن ظهر الداعية الكبير عبقرى العصر وإمام الجيل وأستاذه الشيخ محمد بن عبد الوهاب الذي عرفهم الطريق وأوضح لهم الحلال من الحرام وصحح لهم العقيدة وطهرهم من الشرك والأوثان .

حياة الشيخ:

نسبه: هو محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد بن بريد بن محمد بن مشرف بن عمرو بن معضاد بن ريس بن زاخر بن محمد بن علوي بن وهيب بن قاسم بن موسى بن مسعود بن عقبة بن سنيح بن نهشل بن شداد بن زهير بن شهاب بن ربيعة بن أبي سود بن مالك بن حنظلة بن مالك بن زيد مناه بن تميم بن مر بن أد بن طابخة بن إلياس بن مضر بن نزار بن معد بن عدنان . وهو نسب ثابت ومنقول بالتواتر.

مولده: ولد رحمه الله تعالى سنة ألف ومائة وخمس عشرة من الهجرة النبوية الشريفة في بلدة العيينة وهي من بلاد نجد .

أصله: يرجع أصل الشيخ إلى - الوهبة - وهي بطن من تميم مقرهم في بلدة - أشيقر - إحدى بلدان الوشم وكانت أسرته تقيم بها إلا أن جده سليمان انتقل إلى روضة سدير قاضياً لهم فحصلت بينه وبين بعض أعيانها مغاضبة فانتقل إلى العيينة حيث ولد والد الشيخ ثم ولد الشيخ بعد ذلك في العيينة .

نشأته: نشأ في بلدة العيينة وتلقى العلم فيها فحفظ القرآن الكريم قبل العاشرة من عمره وكان حاد الفهم وقاد الذهن سريع الحفظ ذكياً فطنا وكان أبوه يتوسم فيه خيراً ويتعجب من فهمه وإدراكه مع صغر سنه وزوجه أبوه وسنه اثنتا عشرة سنة وقدمه ليؤم الناس لتمكنه من معرفة الأحكام ثم استأذن والده في الحج فأذن له ثم قام بزيارة المسجد النبوي الشريف ثم عاد إلى العيينة .

المدرسة الأولى: كانت مدرسته الأولى مدرسة والده الذي تلقى على يديه دراسة الفقه على مذهب الإمام أحمد بن حنبل ثم دراسة بعض العلوم الشرعية واللغوية . وكان الشيخ شغوفاً بالعلم يقرأ كل ما يقع تحت يده من كتب التفسير والحديث والعقائد وخاصة كتب الشيخ ابن تيمية وكتب ابن القيم فانشرح صدر الشيخ لهذه الكتب في معرفة التوحيد وتحقيقه ونواقضه التي تضل عن سبيله وأنكر ما حوله من البدع والخرافات والضلالات والشرك الذي انحدر فيه المسلمون وقد رأى من الناس الحاجة جعلته يفطن إلى أن يتسلح بالعلم ويستزيد منه فهو خير معين له على دعوته وإلى

ما يريد الجهر به فصمم على أن يرحل في طلب العلم ليكون سلاحه في معركته القادمة .

رحلاته : قام الشيخ بعدة رحلات ما بين مكة والمدينة والبصرة وغيرهن من البلدان ليتزود من العلم ويتسلح بالمعرفة لإقناع المعاندين المكابرين بالحجة والبرهان .

رحلته إلى مكة والمدينة :

وصل الشيخ إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج والتزود من العلم فأخذ يتردد على العلماء وبياحثهم ويأخذ عنهم حتى استفاد منهم وقد وجد بالمدينة عالين جليدين كان لهما أكبر الأثر في حياته وهما الشيخ عبدالله بن إبراهيم بن سيف النجدي والعالم الكبير محمد بن حياة السندي وقد كانوا يشاهدون ما يفعله الناس عند الحجرة النبوية الشريفة من الدعاء والاستغاثة فقال الشيخ السندي للشيخ ابن عبد الوهاب . ماتقول في هؤلاء . قال : ﴿ إِنَّ هَؤُلَاءَ مَتَبَّرٌ مَا هُمْ فِيهِ وَبَاطِلٌ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (١٥) وأقام بالمدينة فترة ثم رجع إلى نجد .

رحلته إلى البصرة : رجع الشيخ إلى بلده وأقام بها ما يقرب من السنة ثم عزم على الرحيل إلى البصرة وفي البصرة سمع الحديث والفقه من جماعة من العلماء وقرأ النحو وأتقنه وكتب كثيراً من اللغة والحديث وكان يلازم هناك أحد علماء البصرة وهو الشيخ محمد المجموعي البصري وفي أثناء إقامته كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر . كان يأمرهم تجنب البدع وترك الشرك ويحثهم على طريق الحق والاستقامة ويعلن للناس أن الدعاء لله فمن صرف شيئاً منه إلى سواه كفر وكان يبين لهم أن محبة الأولياء والصالحين إنما هي باتباع طريقهم وليست باتخاذهم آلهة من دون الله .

وتكررت منه الدعوة فآذاه بعض أهل البصرة وأخرجوه منها وقت الهجيرة فخرج منها ماشياً على قدميه فلما وصل منتصف الطريق بين البصرة والزبير اشتد العطش به حتى كاد يموت فلحقه رجل مكاري يدعى «أبا حميدان» من أهل الزبير فرأى عليه الهيبة والوقار فسقاه وحمله على حماره حتى وصل الزبير فمكث بها أياماً ثم أراد الذهاب إلى الشام ولكن نفقته قد ضاقت فعدل عن المسير إليها .

(١٥) سورة الأعراف، الآية [١٣٩] .

رحلته إلى الأحساء:

مكث الشيخ ببلدة الزبير أياماً وأراد الرجوع إلى نجد بعد ضياع نفقته وفي طريق عودته توجه إلى الأحساء ونزل بها ضيفاً على الشيخ العالم عبدالله بن محمد بن عبداللطيف الأحسائي . وقد كان الشيخ ينشر دعوته في كل مكان يحل به ولا يضيع فرصة تمر به إلا أبدى رأيه وأمر بالمعروف ونهى عن المنكر . ثم توجه منها إلى «حريملاء» وكان أبوه عبدالوهاب قد انتقل إليها من العيينة وأقام بها بعد أن حصل بينه وبين واليها منازعة فعزله عن القضاء فترك له العيينة وأقام «بحريملاء» وفي حريملاء أقام الشيخ مع أبيه سنين يقرأ ويتعلم منه ثم بدأ يعكف على دراسة القرآن الكريم وكتب السنة وتفسير علماء السلف فاستفاد من ذلك فائدة كبيرة وكان مما استفاد منه أكثر من غيره كتب شيخ الإسلام أحمد بن تيمية وكتب تلميذه الشيخ محمد بن القيم فقد وجد في كتبهما العلوم الصحيحة والأقوال المبنية على الكتاب والسنة والتحقيق والأحكام المطابقة للعقل والنقل مما زاده فهماً وإدراكاً وأهله لأن يكون من الدعاة المخلصين الذين صمدوا أمام الإيذاء ووقفوا في وجه الطغيان وحملوا راية الحق والجهاد والإصلاح فنأدى بدعوته في حريملاء جهراً ولم يفعل ذلك إلا بعد موت والده الذي كان يشفق عليه من الناس ولا يريد أن يشتد عليهم فلما مات والده وكان ذلك سنة ألف ومائة وثلاث وخمسين من الهجرة أعلن دعوته وجهر بها بين الناس واشتد في إنكاره لمظاهر الشرك والبدع وجدّ في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأخذ يدعو إلى الرجوع إلى الكتاب والسنة وجعل يلوم على العلماء تهاونهم وكتمهم الحق عن الناس وكان يخاطبهم بقول الله تعالى ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللَّاعِنُونَ﴾ (١٦) .

أهل حريملاء يستجيبون للشيخ: استجاب للشيخ بعض أهل حريملاء واشتهر أمره وذاع صيته بين الناس فوفد عليه أناس كثيرون من البلدان المجاورة وشرعوا في قراءة التفسير والحديث والتوحيد والسيرة عليه وكذلك الفقه فكثرت أتباعه وصار ينكر كل ما يراه مخالفاً للشريعة وأنكر على بعض الموالي لرؤساء وأعيان حريملاء فسقهم وفجورهم

وأراد منعهم فتسوروا عليه داره وأرادوا قتله ولكن أتباع الشيخ علموا بذلك فظفروا في حراسته وأرهبوهم فرجعوا خائفين .

انتقال الشيخ إلى العيينة : بعد أن وقعت للشيخ هذه الحوادث في بلدة حريملاء انتقل منها إلى العيينة لأن حريملاء صغيرة لا تتسع للدعوة ونشرها أما العيينة فهي من أكبر مدن نجد وأكثرها سكاناً وكان أميرها إذ ذاك عثمان بن حمد بن عبيدالله بن معمر فقابله أميرها بالخفاوة والتكريم وتزوج فيها الجوهرة بنت عبدالله بن معمر .

وناصره الأمير وآزره وألزم العامة والخاصة بامتنال أمره وقبول قوله فقويت شوكته واتسع نفوذه وذاع صيته واشتهر أمره فقام بقطع الأشجار المعظمة وكسر الأحجار وهدم القباب والمشاهد وتعديلها على السنة وقد هدم بيده قبة زيد بن الخطاب لأن الناس كانت تتهيب هدمها وتخاف من صاحبها أن ينزل بهم العقاب وقد انتظروا الليلة التي هدمها فيها الشيخ وهم يترقبون له حدثاً ولكنه ظهر بأحسن حال فعلم جهال القوم أن مايفعله الشيخ صحيح وأن ماكانوا عليه باطلاً وشركاً وضلالاً قال الله تعالى ﴿أَجْعَلِ الْآلِهَةَ إِلَهًا وَاحِدًا إِنَّ هَذَا لَشَيْءٌ عَجَابٌ﴾^(١٧) ولكن هل يقتنع أهل الضلالة ويقنعوا عن غيهم وضلالهم ويتبعوا الهدى والنور . لا ، إنهم في غمرة وجهالة وعناد وخصام لكل ما هو خير للإنسانية فتجمعوا على المخاصمة والحرب . وتأليب الناس على الشيخ وإذاعة الأباطيل والأكاذيب ينشرونها بين الناس ولجأوا في ذلك إلى ضعف النفوس من علماء تلك البلاد الذين لا يبتغون من علمهم وجه الله وإنما يسرون وراء منفعة مادية أو مصلحة دنيوية فألف هؤلاء العلماء المصنفات في تضليل الشيخ وأنه قد غير في الشرع والسنة وأغروا به الخاصة والعامة وخصوصاً السلاطين والحكام وخوفوهم منه على سلطانهم وحكم بلادهم وخروج الناس عليهم وإعلان عصيانهم .

الدعوة تنتشر رغم المعارضة : لقد اشتد أمر الشيخ وقوى عوده فقام بتنفيذ بعض الأحكام الشرعية فنفذ الحكم في امرأة زانية أقرت وهي محصنة . وفشا التوحيد وانتشر واطمأن الناس إلى حكم الله . ولكن أعداء الحق والعدالة لا ينامون يخافون على

(١٧) سورة ص ، الآية [٥] .

ولاياتهم ومناصبهم فهم دائماً يقفون في وجه كل إصلاح بالدعاية تارة ونشر الإشاعات والسموم تارة أخرى. فذهب الخصوم إلى حاكم الأحساء والقطيف وما حولها - سليمان بن محمد الحميدي وخوفوه على ملكه فأرسل إلى عثمان بن معمر كتاباً يأمره فيه بقتل الشيخ أو إخراجهم من العينة وإن لم يفعل قطع عنه خراجه الذي عنده.

انتقال الشيخ إلى الدرعية: تلقى الأمير عثمان بن معمر كتاب أمير الأحساء والقطيف فوقع في حيرة من أمره فماذا يفعل؟؟ وهو لا يستطيع أن يستغنى عن الخراج فأطلع الشيخ على الأمر وبعد محاورة بينه وبين الشيخ كان يبدو فيها ضعيفاً مستخزياً مستهولاً مخالفة أمير الأحساء لإيثاره الدنيا على الآخرة. فأمر الشيخ بالخروج من العينة. فخرج منها إلى الدرعية وكان ذلك سنة ألف ومائة وثمان وخمسين من الهجرة وفي الدرعية نزل على عبدالله بن سويلم وفي اليوم التالي نزل في دار تلميذه الشيخ أحمد بن سويلم.

الأمير محمد بن سعود يبایعه: علم الأمير محمد بن سعود بالشيخ فركب إليه في تلك الدار التي ينزل فيها وأظهر له من التعظيم والتكريم شيئاً كثيراً وقال له أبشر ببلاد خير من بلادك وأبشر بالعز والمنعة فقال الشيخ وأنا أبشرك بالعز والتمكين وهذه كلمة «لا إله إلا الله» من تمسك بها وعمل بما فيها ونصرها ملك بها البلاد والعباد. وأخذ الشيخ يشرح للأمير حقيقة الإسلام ويبين له أصول التوحيد وما عليه أهل نجد من الجهل والبدع والشرك فلما قرر الشيخ للأمير هذه الأمور المهمة. انشرح صدر الأمير لها وقال: لاشك أن ما دعوت إليه أيها الشيخ هو دين الله الصحيح والعقيدة الحقة وأن ما عليه أهل نجد هو ضلال ولكن أخشى إن نحن أيدناك ونصرناك أن تتركنا إلى غيرنا وترحل عنا وإن لنا على الدرعية قانوناً نأخذه منهم في وقت الثمار فأخاف أن تحرمه علينا فقال الشيخ أما الأولى. فابسط يدك أبايحك. الدم بالدم والهدم بالهدم والبقاء معكم. وأما الثانية فلعن الله أن يفتح لك الفتوحات ويعوضك عما تأخذه منهم ومنذ ذلك اليوم وقد أصبح للدرعية شأن وأي شأن.

الدرعية مركز الدعوة:

لقد بايع الأمير محمد بن سعود على دين الله ورسوله والجهاد في سبيله وإقامة شرائع الإسلام والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واستقر الشيخ في الدرعية فتسلل إليه

أصحابه وأتباعه من أهل العينية وصارت الكتب ترسل من الداعية الكبير إلى أمراء نجد وعلمائها بالدعوة إلى الله تعالى وإلى دينه الحق والجيش تبعث من الدرعية إلى القرى المجاورة والمدن والشيخ لا يفتر عن الجهاد بقلمه ولسانه وينظم الجيوش وبيعت البعوث مع الإمام محمد بن سعود الذي حمل راية الجهاد والنضال فازدهرت الدعوة وانتشرت وقوى سلطانها.

الهجوم على الدرعية :

راع أنصار الشيطان وأعداء الحق أن يروا الدعوة تنتشر وتزدهر وتعلو وترتفع فجمعوا جموعهم وألبوا الأمراء والبوادي في الصحراء وهجموا على الدرعية بقيادة دهام بن دواس وقتل أولاد الأمير محمد بن سعود فيصلاً وسعوداً. ولكن ذلك لم يزد الأمير إلا قوة وصلابة ولم يضعف ولم يستكن ولم يتزحزح وصبر على هذا البلاء واحتسب أولاده شهداء في سبيل الله فازداد الداعون والمحاربون قوة فوق قوتهم ومنعة فوق منعتهم وإيماناً بالحق وأبطل الله كيد أعدائهم ورد كيدهم إلى نحورهم ﴿وَيَأْبَى اللَّهُ إِلَّا أَنْ يُتِمَّ نُورُهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ (١٨).

وما أشبه الليلة بالبارحة فقد كانت هذه الواقعة وهذا الهجوم أشبه بهجوم المشركين على المدينة في غزوة الأحزاب فأبطل الله كيدهم وشتت جموعهم ونصر الله رسوله وجنده وصارت كلمة الله هي العليا وكلمة الذين كفروا هي السفلى .
آل سعود يواصلون تأييد الدعوة :

بعد كل هذه الأحداث الدامية والصدمات المتكررة والحرب الطاحنة الداهمة التي راح ضحيتها أبناء الأمير محمد بن سعود فقد ظن الجهلاء أن الأمير سيترك نصرة الشيخ ومؤازرة الدعوة . ولكن الله سبحانه وتعالى قد شرح صدره لها وقوى إيمانه بها وكيف لا وهي دعوة خير الأنبياء والرسل . . دعوة الحق والهداية للبشرية قاطبة .

(١٨) سورة التوبة، من الآية [٣٢].

صهرت الأمير هذه الأحداث فزادته متانة وصلابة . وأعد الجيوش لمحاربة أعداء الله وناشري الكفر والشرك والضلال حتى نصر الله دعوته ودانت البلاد كلها وفتحت الرياض وماحولها من البلاد وكان يشارك الأمير في الجهاد ابنه عبدالعزيز وكان الشيخ يشاركهما في تنظيم الجيوش وبعث السرايا كما كان يشاركهما في المشورة بشئون الحكم وأحوال الدولة . ولما اتسعت رقعة الدولة بعد وفاة الإمام محمد بن سعود وتولية ابنه عبدالعزيز مكانه عقد الشيخ الولاية بالعهد لسعود بن عبدالعزيز وصار سعود هو قائد الجيوش واكتفى الشيخ بالأعمال الدينية والإشراف عليها في جميع أنحاء الدولة . وقد توزعت المهام بذلك نظراً لكثرتها وقد أصبحت الدرعية عاصمة للجزيرة العربية ومثابة وإشعاعاً لجميع البلدان المجاورة وتوفر المال بها وأنعم الله على أهلها وأفاء عليهم مما كسبوه من أعدائهم وصارت بها نهضة دينية وعلمية وتوافد العلماء عليها من كل حذب وصوب وراجت سوق العلم بها وكثرت الندوات الدينية وحلقات الدروس في المساجد وعلاوة على ذلك فقد صار بها جيش منظم قوي كامل العدة والسلاح لمحاربة المرتدين وأهل البدع والشرك . ولقد نجحت الدعوة نجاحاً كبيراً ورأى الشيخ ومؤازروه من آل سعود ثمرة نجاحهم بفضل الله ثم بفضل جهادهم ومثابرتهم وصبرهم وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿وكان حقاً علينا نصر المؤمنين﴾ (١٩) . وقوله تعالى : ﴿ولينصرن الله من ينصره إن الله لقوي عزيز﴾ (٢٠) .

وفاة الشيخ :

بعد هذا الجهاد المرير في سبيل دعوة الخير والإصلاح حتى جمع الله عليها القلوب والأفئدة ولم شعث الجزيرة بعد الفرقة وتوحدت كلمتها وارتفعت رايته وحكمت الناس بالعدل وحكمت فيهم كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ .

وأصبح الناس في سعادة ونعمة وافرة من الله وذلك بفضل الله ثم بفضل هذا الداعية الكبير والمجاهد العظيم الذي استمر في دعوته رغم كثرة الخصوم والأعداء وبعد أن رأى الشيخ ثمرة نجاحه واطمأنت نفسه واستراح ضميره ، وتمت كلمة الله

(١٩) سورة الروم ، من الآية [٤٧] .

(٢٠) سورة الحج ، من الآية [٤٠] .

وامتزجت صدورهم وأرواحهم بها صعدت روحه إلى بارئها راضية مرضية وصدق الله العظيم حيث يقول: ﴿يَأْتِيهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ أَرْجَعِي إِلَىٰ رَبِّكَ رَاضِيَةً مُّرْضِيَةً، فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (٢١) وكان ذلك آخر ذي القعدة من سنة ألف ومائتين وست من الهجرة . رحمه الله رحمة واسعة وأفسح له في جناته .

وقد كانت فجيعة المسلمين به كبيرة ونكبتهم فيه عزيمة ومصابهم فادحاً ولقد شيعه الناس بقلوب منفطرة وألسنة ملجمة وأعين شاخصة وكواهل واهنة وأخذوا يعزون بعضهم بعضاً لأن كل واحد منهم يشعر في قرارة نفسه أن المصاب مصابه وأن الفجيعة فجيعة .

ولقد رثاه الشعراء وأثنى عليه العلماء ورثاه الشيخ حسين بن غنام من قصيدة طويلة أولها :

إلى الله في كشف الشدائد نفع
وليس إلى غير المهيمن مفع
لقد كسفت شمس المعارف والهدى
فمالت دماء في الخدود وأدمع^(٢٢)

«آثار الشيخ العلمية»

كان الشيخ رحمه الله تعالى يوزع وقته بين العبادة وبين حلقات الدروس التي كان يعقدها لوعظ الناس وإرشادهم وبين مهام الحكم وتصريف أمور الدولة التي اشترك فيها مع آل سعود، وبين التأليف . فنراه لم يغفل هذا الجانب بالرغم من مشاغله الكثيرة فألف مؤلفات عدة نافعة وكتباً مفيدة .

طريقته في التأليف :

وكانت له طريقة فريدة في التأليف الذي يدعم كلامه بالحجج والبراهين القوية المستمدة من كتاب الله وسنة رسول الله وبذلك لا يسع القارئ إلا أن يسلم بهذه

(٢١) سورة الفجر، الآيات [٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠] .

(٢٢) انظر هذه القصيدة كاملة في كتابه «روضة الأنظار والأحكام لمرتاد حال الإمام» المعروف باسم تاريخ ابن غنام .

الأدلة المقنعة المفحمة التي تطمئن إليها النفس ويرتاح لها الضمير ويجني الإنسان من ورائها ثمرة وفيرة .

وقد نهج الشيخ في ذلك منهج شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن القيم . وكان للمكتبة الإسلامية نصيب وافر من تلك الكتب والرسائل التي ألفها الشيخ وكانت تتميز بطابع خاص من فهم للإسلام وروحه وعقيدته وتعاليمه السامية دون تأول أو التواء أو تعقيد . وقد كان أسلوبها سهلاً ميسراً لكل قارئ . وإن أفضل مانطلقه على هذا الأسلوب هو الأسلوب «السهل الممتنع» .

بداية النهضة :

لقد اتفق المؤرخون على أن بداية النهضة العلمية والأدبية في العصر الحديث هو ظهور دعوة الشيخ الإمام محمد بن عبد الوهاب لما كان لها من اليد الطولى في تحريك المشاعر وإلهاب العواطف والسمو بالروح وإعادة المجد والعزة للغة العربية وإلباسها أبهى الحلل وأزهى الثياب .
مؤلفات الشيخ :

ألف الشيخ مؤلفات كثيرة منها :

- ١ - كتاب التوحيد الذي هو حق الله على العبيد .
- ٢ - كتاب الكبائر والمسائل التي خالف فيها رسول الله ﷺ أهل الجاهلية .
- ٣ - مختصر السيرة النبوية .
- ٤ - مختصر زاد المعاد .
- ٥ - مختصر الإنصاف والشرح الكبير .
- ٦ - أصول الإيمان وفضائل الإسلام .
- ٧ - أحاديث الفتن .
- ٨ - أدب المشي إلى الصلاة .
- ٩ - كشف الشبهات .

هذا وقد قام الشيخ - لغير هذه الكتب - بتصنيف عدة نسخ وأوراق وفتاوى ومراسلات فقهية أكثرها في تقرير التوحيد .

وله أيضاً في تفسير القرآن الكريم باع طويل فقد كان غاية في الدقة والإحكام .
يأتي على كل آية وقصة بعدة مسائل حتى أتى في قصة موسى والخضر في سورة
الكهف بقريب من مائة مسألة .

الشيخ كان أسوة :

وقد نهل من منهل الشيخ وشرب من مشربه تلاميذه وأنصاره ومريدوه فحملوا عنه
العقيدة الصحيحة والتضحية والجهاد في سبيل الدعوة كما أخذوا عنه العزم وقوة
الإرادة والمثابرة في سبيل نشر الدعوة الإسلامية بالتأليف والكتابة والخطابة ونشر
الرسائل حتى قامت دعائم التوحيد عالية خفاقة على ربوع الأرض ، ونسأل الله أن
يوفق المسلمين في كل مكان لفهم حقيقة التوحيد والسير في سبيل الله على هدى
من الله وبصيرة من علم ، حسب ما رسم رسول الله ﷺ وبين لأصحابه .



